

# و للمرأة دور نضالي في معركة اليرموك

الدكتور محمود الربداوي\*

السبب لا يملك المرء إلا أن يبدي إعجابه بالجهود العظيمة التي بذلها (الجنرال أكرم) في الضابط المدرب المؤرخ في كلية الأركان الباكستانية (كلية كويتا) الذي ألف كتابه (خالد بن الوليد: سيف الإسلام) وترجمه إلى العربية العميد الركن صبحي الجابري، فعندما شعر

الجنرال أكرم بأن في التاريخ الإسلامي إنجازات عسكرية عظيمة، ومعارك قامت بها جيوش المسلمين، وقادة كانوا موهوبين في إدارة استراتيجية الحروب، ووجد أن إنجازات هؤلاء القادة ما زالت صورتها الحقيقية المتألفة لم تعطَ حقها من البحث الجاد، أخذ على عاتقه أن يوقف محاضراته في كلية الأركان، وأن يرحل إلى البلاد العربية التي كانت ميدان الحملات المظفرة التي أنجزها قادة غيروا وجه التاريخ بانتصاراتهم على القطبين الوحيدين الفرس والروم في عالم السياسة والحرب في القرون الوسطى، وهذه المنجزات التي حققوها هي التي أخرجت العرب من عصر الظلمات إلى عصر النور، وهي التي ننعم بالعيش على مكتسباتها الآن، بعد أن انتشر العرب خارج جزييرتهم، وملكوا أصقاع المعمورة وورثوا تركة حضارتين من أعظم الحضارات التي قامت في آسيا وأوروبا، غير أن الصورة الحقيقية لتحرك هذه الجيوش العربية وتفاصيل المعارك وجزيئات ميادين القتال لم يتضمنها كتاب عصري واحد، صادق المعلومة، مبرأ من الهوى (الشوفونية) وإنما ما زالت هذه التفاصيل - وحرى بجيل الألفية الثالثة أن يعرفها لكي لا ينقطع التواصل بين الماضي والحاضر استعداداً لانطلاقة المستقبل - أقول هذه التفاصيل ما زالت مغيبة، وما زالت دفينة متفرقة في بطون أسفار التاريخ والأدب، وهذا الذي حفز رجلاً غيوراً هو الجنرال أكرم أن يتجشم عناء الارتحال والبحث والتقيب في الجزيرة العربية والعراق والأردن وبلاد الشام ليتقرب واحدة من مسيرات الأبطال العرب ممثلة بخالد بن الوليد. تتبع تحركات خالد من المدينة إلى اليمامة إلى

رئيس تحرير مجلة التراث العربي.

القادسية إلى اليرموك، إلى دمشق، ثم استقر آخر أيامه في حمص حيث وافته منيته في مطلع العقد الثالث الهجري الذي مضى عليه أربعة عشر قرناً، فلكي لا ينسى الجيل الحاضر - بفعل مرور أربعة عشر قرناً - أمجاد تاريخه نكتب له هذه الصفحات. ولما كانت منجزات ابن الوليد لا تتسع لها الصفحات ولا المؤلفات لذلك سنقتصر على صورة جزئية من جزئيات اليرموك، ذات دلالة كبيرة تحفز الرجل والمرأة على أن يدرك أن هذه الأمة العربية العظيمة أمة ليست بعقيم، وإنما هي أمة ولود، مصداق ذلك هذه الصور (الاستشهادية) التي يُقدمها الشباب والشابات دفاعاً عن الأرض التي أورثهم إياها خالد وعمر، الأرض الحافلة بالمقدسات للمسلمين والنصارى.

لقد كتب عن خالد بن الوليد الكثير من المؤلفات، ولكن الكتابة عن أيام معركة (اليرموك Hieromax) قليلة نسبياً، وما كتب عن تلك الأيام معاد مكرراً، وبقيت هناك جوانب أخرى مغيبة لم نتطرق إليها المؤلفات، وحتى موقع اليرموك من جغرافية الوطن العربي لا يعرفه الكثيرون من أبناء العرب، وعلى الرغم من موقع نهر اليرموك بين سورية والأردن إلا إن نسبة قليلة جداً ممن يعرف، بالضبط، أين دارت رحى المعارك الفاصلة بين العرب والروم، وأين تركزت حركة الكر والفر بين الجيشين من ضفتي الوادي الذي يبلغ طول تعرجاته وروافده من (الهرير والعلان والرقاد) حوالي خمسين كيلومتراً، وأين تقع من شط الوادي مخاضة (الياقوصة، أو الواقوصة) التي شهدت الموقف الحاسم من الانتحار القسري الذي تساقط فيه ما يقرب من أربعين ألفاً من فرسان الروم ورجالتهم.

النقطة التي أراها جديرة بالبحث ولما تُبحث من قبل إلا لماماً تتمثل بالدور العظيم الذي قامت به نساء المسلمين في اليرموك، وهو دور مشرف على غاية من الأهمية، على الرغم من أن المراجع التاريخية مرت عليه مروراً سريعاً، ولم توفه حقه من التحليل. والذين كتبوا عن هذه المعركة إما مؤرخ لا يعرف استراتيجية الحرب، وإما عسكري يعرف فنون الحرب ولكنه لا يعرف تاريخ نشوء الأمم والأحداث المفصلية التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في تغيير الهويات الجغرافية وجنسيات الأعراق المسيطرة عليها.

تجمع المصادر على أن أول من فتح باب الحرب في اليرموك غلام حدث من الأزدي يرغب في الاستشهاد، فحمل على الروم وهو ينشد رجزاً، فقتل أربعة من جنود الروم، وقتل في مبارزته للجندي الخامس، وعندها شد الروم على المسلمين فكشفوا ميمنتهم، فراجع المسلمون إلى التل المرتفع الذي ارتأى أبو سفيان على القائد العام أبي عبيدة أن تَحِيْمَ نساء المسلمين فيه. فقال أبو عبيدة: نعم ما رأيت، فأمرهن بذلك، ففعلنّ وعلون على التل، وحصنّ أنفسهن مع أولادهن، ومعهن الأولاد والأطفال. قال أبو عبيدة لهن: خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام، واجعلنّ الحجارة بين أيديكن، وحرّضن المؤمنین على القتال... فقالت النساء: أيها الأمير، أبشّر بما يسرك. (1) وأن ينتشر

(1) تاريخ دمشق: ابن عساكر، ج 145/2. وفتح الشام للواقدي، 202.



وخولة تقول هذه الأبيات: (1)

يا هارباً عن نسوة ثقات      لها جمال ولها ثبات  
تسلموهن إلى الهنات      تملك نواصينا مع البنات  
أعلاج سوق فسق عتاة      ينلن منا أعظم الشيات

قال: ورجعت النساء تحرض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء، وخرجت هند بنت عتبة وببدها مزهرها ومن خلفها نساء من المهاجرين وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أخذ، وهو هذا:

نحن بنات طارق      نمشي على النمارق  
مشي القطا الموافق      قيدي مع المرافق  
ومن أبى نفارق      إن تغلبوا نمالق  
أو تدببوا نفارق      فراق غير وامق  
هل من كريم عاشق      يحمي عن العواتق؟!

قال: ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأيتهم منهزمين، فصاحت بهم: إلى أين تنهزمون؟ أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم؟ ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزماً، فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يابن صخر؟ ارجع إلى القتال، وابذل مهمتك، حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله (ﷺ). قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أخذ ونحن بين يدي رسول الله (ﷺ)، قال: فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند، وعطف المسلمون معه، ونظرت إلى النساء، وقد حملن معهم، وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل، وقد رأيت منهن امرأة وقد أقبلت إلى علي عظيم، وهو على فرسه، فتعلقت به، وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته، وهي تقول: هذا بيان نصر الله المسلمين. (2) وكان هذا الموقف من النساء من المواقف الرائعة التي أسهمت في حسم معركة يتقابل فيها جيشان غير متكافئين عدداً وعدة، ولكن مثل هذا السلاح المعنوي رجح ميزان الجندي العربي فزاد في بسالته، فعاد الهجوم بعد الانهزام؛ لكيلا يشعر بالإهانة والمذلة أمام نساء القبيلة، ولذلك قال منهال الدوسي: "فلقد كانت النساء أشد علينا غلظة من الروم، فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضاً،

(1) فتوح الشام، الواقدي، 206، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، ج 152/2.

(2) فتوح الشام، الواقدي، 206-207.

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر<sup>(1)</sup>.

وكانت النساء لا تستغل في الرجال عاطفة الأبوة، وظاهرة الدفاع عن الحرمات، وهي قيمة أخلاقية ابتدأت في الجاهلية وتتمت في الإسلام، وإنما لجأت النساء إلى استفزاز الرجال وتحريضهم بلمس العقائد الدينية التي أصبحت بعد انتصار الإسلام وانتشاره في العقدين الأولين من القرن الهجري الأول الدافع الأساس للجهاد، والمرغب الأصل في الشهادة لنصرة الدين، وخاصة أن المسلمين يحاربون جيشاً يغيّرهم تماماً في العقيدة فتلجأ المرأة لا إلى دالة الزوجية وإنما للنخوة الدينية كالحالة التي رأيناها عندما هاجم بطارقة الروم قلب الجيش الإسلامي وميمنته. حيث كان لواء القلب بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ولواء الميمنة بقيادة عمرو بن العاص فتكاثر الروم عليهما، فترجع المسلمون حتى التصقوا بالتل الذي عليه النساء، وأحاطوا بالتل، فصاحت امرأة: أين أنصار الدين؟ أين حماة المسلمين؟ وكان الزبير بن العوام جالساً عند زوجته أسماء بنت أبي بكر، قال: يا أسماء ما لهذه المرأة نصيح: أين أنصار الدين؟ فقالت له عفرة بنت عثمان: يابن عمة رسول الله (ﷺ) انهزمت ميمنة المسلمين، حتى ألجأهم الروم إلينا، وأحاط بنا الأعلاج وهذه نساء الأنصار مستصرخة بأنصار الدين، فقال الزبير: والله إني أنا من أنصار الدين، ولا يراني الله جالساً في مثل هذا الوقت، قال: ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالساً على متن جواده، فأخذ قناته وجعل يطعن فيهم طعنا متداركا حتى ردهم على أعقابهم<sup>(2)</sup>.

ولم تقتصر هذه المواقف الشجاعة على أن تحرض المرأة زوجها الذي لها عليه من الدالة ما يسمح بمثل هذا التحريض المشوب باللوم، ولكن تعداه إلى مواقف أنثوية أكثر شجاعة حيث تقف امرأة أمام خالد بن الوليد لتذكّره بأنه القائد العام لجيش المسلمين، والقائد قدوة لجنوده، فإن ثبت في المعركة ثبت رجاله، وإن وهن انهزم رجاله. وصف الواقدي حملة القائد الرومي (قناطر) بأنها من أشد الحملات مما زعزعت صفوف جيش المسلمين، مما اضطر خالد إلى إعادة ترتيب صفوف جنده، فإذا هو يعبئ ألويته أقبلت إليه امرأة اسمها ذرعة بنة الحارث منحدره عن التل، حتى وقفت بين يديه، وقالت: "يابن الوليد، أنت من العرب الكرام، وإنما الرجال بأمرائها، فإن ثبتوا ثبتت الرجال معهم، وإن انهزموا انهزمت الرجال معهم، فقال لها خالد: ما كنت من المنهزمين، وما كنا إلا نقاتل في الأعلاج، فقالت: قبح الله وجه عبد نظر إلى أميره ثابتاً وهو منهزم"<sup>(3)</sup>.

2- وقد يقلل الباحث المنصف من دور النساء في المعركة إذا صور دورهن مقصوراً على مجرد رد المحاربين المنهزمين، وتحريض المقاتلين على العودة إلى صميم المعركة تارة باستثارة الحافز الديني، وتارة بحافز الدفاع عن الحرمات وحماية الأطفال، وإنما الحق أن يبين دورهن في العمليات القتالية نفسها، والاشتباك مع المحاربين الآخرين من جنود الأعداء، وقبل توضيح ذلك

(1) فتوح الشام، الواقدي، 208.

(2) فتوح الشام، الواقدي، 213.

(3) فتوح الشام، الواقدي، 209.



فيها، قال: "وحملت خولة بنت الأزور على علاج من الأعلاج كان قد حمل علينا، فاستقبلته وجعلت تشالشه - أي تضربه ويضربها بالسيف - فضربها العالج بسيفه على قصبتها فأسال دمها، وسقطت إلى الأرض، فصاحت عفيرة بنت عفان، حين نظرتها صريعة، ونادت: فجع، والله، ضرار في أخته، فأخذت رأسها على ركبته، والدم قد صبغ شعرها كالشقائق - شقائق النعمان وهو زهر ورقة أحمر داكن - فقالت لها: كيف تجديك؟ قالت: أنا بخير إن شاء الله تعالى، ولكني هالكة لا محالة، فهل لك عليّ بأخي ضرار؟ فقالت عفيرة: يابنة الأزور، ما رأيته، فقالت خولة: اللهم اجعلني فداء لأخي، ولا تفجع به الإسلام، قالت عفيرة: فجهدت أن تقوم معي فلم تقم، فحملناها إلى أن أتينا بها موضعها، فلما كان الليل رأيته وهي تدور تسقي الرجال، وكان ليس بها ألم قط، ونظر إليها أخوها والضربة في رأسها، فقال لها: ما بك؟ فقالت: ضربني علاج قتلته عفيرة، فقال لها: يا أختاه: أبشري بالجنة، فقد أخذت لك بثار الضربة مراراً، وقتلت منهم أعداداً<sup>(1)</sup>.

3- وثالثة المهمات التي كانت منوطة بالنساء في الحرب هي العمليات (اللوجستية) صحيح أن هذا المصطلح العسكري حديث، ولكنه من مستلزمات الحرب قديماً وحديثاً ومستقبلاً؛ لأن العمليات اللوجستية ضرورة لا بد منها للجيش، وقد كانت النساء تقوم بنصيب وافر منها. فكانت تدخل إلى المعركة لإخلاء الجرحى والمصابين، ونقلهم من ساحة المعركة إلى معسكر النساء، وإسعاف من كانت جروحه تنزف، في زمن لم تكن هناك سيارات إسعاف، ولا مستشفيات ميدانية، فدور المستشفى تقوم به نساء خبيرات مدربات في معارك سابقة، على معالجة الجروح وإيقاف النزيف، ومداواة العيون، وخاصة في اليوم الذي عُرف في معركة اليرموك باسم (يوم التعوير) ذلك لأن رماة القوس والنشاب في صفوف الروم كانوا قد حفروا خندقاً وتواروا فيه، وأعطوا التعليمات بإطلاق سهامهم ونبالهم على المحاربين المسلمين عندما يقتربون من خندقهم في حالة تراجع جيش الروم، وهذا ما كان فعلاً، فما إن اقترب منهم المسلمون حتى أخذوا يطلقون ما في أقواسهم وجعبهم من السهام، وكانوا من المهارة بحيث يصوبون نبالهم إلى عيون المسلمين فتصيبها، وقد أصيب من المسلمين عيون سبع مئة محارب في يوم التعوير، ومنها العين الوحيدة التي كانت لأبي سفيان في معركة اليرموك، فرجع من المعركة أعمى، بعد أن كانت عينه الأولى قد ذهبت في غزوة الطائف، فكانت مهمة النساء معالجة العيون والجروح البسيطة لعل المحارب يستأنف القتال بعد تضييد جراحه.

ومن الأعمال اللوجستية المنوطة بالنساء إعداد الطعام وتهيئة المؤونة والماء، والفائض من السلاح ومخلفات الغنائم، والخيول المكتسبة في المعركة وتقديم العلف لها ولخيول المسلمين البديلة المهيأة لمن فقد فرسه، ولتسلم الإمدادات التي تأتي من دار الخلافة في المدينة، واختبار جاهزيتها ووضعها في تعبئة معينة بإشراف القائد العام.

ومن الأعمال العسكرية التي ساهمت بها النساء العربيات حراسة المعسكرات على الحدود

(1) فترج الشام، الواقدي، 218.

الفاصلة بين الجيشين. وتُجمع كتب التاريخ على أن أشد أيام المعركة هولاً تواقف فيها الجيشان من الفجر حتى العشاء وسقوط العتمة، رجع المسلمون إلى معسكر راحتهم، بعد جهاد شاق في ذلك اليوم، لذلك لم يعين أبو عبيدة أحدًا من المسلمين لحراسة الجيش؛ لما نالهم من التعب. بل إنه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين، قال: فبينما هو يدور إذ رأى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه، فكلما قال: لا إله إلا الله، قال: محمد رسول الله، فقرب أبو عبيدة منهما فإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق. فسلم عليهما وقال: يابن عمه رسول الله (ﷺ) ما الذي أخرجكما؟ قال الزبير: نحرس المسلمين، وذلك أن أسماء قالت لي: يابن عمه رسول الله (ﷺ) إن المسلمين مقتلون بأنفسهم في هذه الليلة بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم، فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك، فشكرهما أبو عبيدة، وعزم عليهما أن يرجعا، فلم يفعلوا ولم يزالا كذلك إلى الصباح.<sup>(1)</sup>

وعلى هامش ذلك اليوم يقال: إن خالد بن الوليد قد انقطع في يده تسعة أسياف كلما انقطع سيف استبدل به سيفاً جديداً، وقتل في يوم التعوير نحو من أربعين ألف رومي أو يزيدون، أما الذين كانوا مربوطين بالسلاسل - وهذه القصة حقيقية، كنا لا نصدقها عندما نقرأها في كتب التاريخ ونحن أطفال - فقد وطنتهم الخيل فانحطم أكثرهم، وتقدمت جيوش المسلمين فوق جثثهم، ويقول المؤرخون إن النساء كانت تحارب أمام الرجال في ذلك اليوم.

وباختصار لقد ركبت المرأة الفرس، وتقلدت السيف، وخاضت الصفوف في المعركة فحققت مع الرجل النصر على الروم، الذين كانت قيادتهم تربطهم بالسلاسل لكيلا يفروا، ف خسروا المعركة إلى الأبد، ودخلت أرض اليرموك، وما حولها من أراضي حوران والجولان في حوزة المسلمين إلى الأبد، وهي أرض خصبة التربة تتفجر فيها عيون الماء، كانت قديماً تسمى (أهراء روما) وهي الآن تمون جنوب سورية بالغلل والخضار والثمار، وكان القرآن الكريم وصف الروم عندما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ، كَذَلِكَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾<sup>(2)</sup>.

هذا الذي أكتبه الآن بعض من بطولات المرأة العربية المسلمة فيما حفظته لنا كتب التاريخ عن معركة اليرموك، وعن جنود خالد بن الوليد وجندياته، وشتان بين دوافع الجنديات المسلمات والجنديات الإسرائيليات والأمريكيات والأدوار الترفيهية التي تقوم بها هؤلاء الأخيرات.

وصورة المرأة العربية في واحدة من معارك المسلمين تعطينا نموذجاً عن جانب من جوانب نضال المرأة، النضال السياسي والعسكري والاجتماعي، وما حاولت رسم هذه الصورة إلا لأخذ العبرة والعظة، وإن كنت لست واعظاً، كما أنني لا أريد باستعراض صور الماضي للرجوع إلى الماضي والتفوق فيه، وإنما حسبي أن أقتبس من الماضي صوراً مشرقة أضعها بين أيدي أبناء هذا

(1) فتوح الشام، الراقيدي، ص 220.

(2) سورة الدخان، 26-30.



الجيل الحاضر وبناته، وتحت بصر شباب العصر وشبابه ليكون كل واحد منهم عصامياً لا عظامياً،  
تقدماً لا رجعيّاً، شعاره قول الشاعر:

إن الفتى من يقول: ها أنذا  
وتقول الفتاة:

لسنا، وإن أحسابنا كرمست  
تنبني كما كانت أوائلنا  
يوماً على الآباء نتكل  
تنبني، ونفعل مثل ما فعلوا



### المصادر والمراجع:

4- الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال، دار  
النفائس، بيروت، 1405.

5- فتوح الشام، الواقي (محمد بن محمد)، القاهرة،  
1954.

المراجع الأجنبية:

*Decline and Fall of the Roman Empire,*  
Edward Gibban, London, 1954.

1- تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج2، ص 141 فما  
بعد.

2- خالد بن الوليد، شوقي أبو خليل، دمشق، ص 62  
فما بعد.

3- سيف الله خالد بن الوليد، الجنرال أ.أكرم، ترجمة  
العميد الركن صبحي الجابي، منشورات هيئة التدريب  
في القوات المسلحة العربية السورية، دمشق 1976.

